المحاضرة رقم 03.

التنوع الثقافي في الجزائر

1–توطئة:

الثقافة الجزائرية هي عصارة قرون، وهي في تقلباتها، وتحولاتها من مرحلة إلى أخرى ثقافة تقوم أساسا على التنوع نتيجة لعوامل التأثير التي لاحقتها. وفي ظل هذا التنوع، والتعدد يغدو المشهد فسيفساء «فإلى جانب التأثير العربي الإسلامي المشرقي المتمثل في الحركات الإصلاحية والصحف والكتب والتمثيل المسرحي والموسيقي، هناك التأثير الفرنسي–الأوربي الذي كان ينافس التأثير الأول لدرجة أنه كاد يهدد الشخصية الوطنية بالذوبان، وقد كان للفرنسيين، بالإضافة إلى اللغة والمسرح والصحف والكتب والموسيقى والمدرسة الخ، وسائلهم السياسية والقانونية في ربط الجزائر ببلادهم»[1]. وقد كان احتدام الصراع كبيرا؛ ذلك أن الحركة الوطنية الإصلاحية، وبعض التيارات السياسية كانت تعمل لصالح الهوية الجزائرية، وثوابت المجتمع، وأصالته، وجذوره الممتدة في التاريخ. وممارسات فرنسا وبعض تيارات الاستلاب والتغريب، والإدماج كانت تعمل في الاتجاه المعاكس، وهو القضاء على معالم الهوية، وتكريس فكرة الاندماج.

[1]) أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة. ص44.

2-تعدد مسارب الثقافة الجزائرية أثناء الاحتلال الفرنسي:

تعددت مسارب الثقافة الجزائرية عبر مسيرة المجتمع الجزائري، وتعددت التأثيرات العربية، والأجنبية، وفي رحلة البحث عن الذات وسط محنة الاستدمار، وقسوته، صار التشكيل الاجتماعي عرضة لرياح التأثر بمختلف الثقافات التي تصل إليه. ولكنه دوما كان يسعى إلى تأسيس ذاته وفق مبدأ المحافظة على الأصل، وتقبل ثقافة الآخر. «وإذا كان التأثير المشرقي، والفرنسي لا يكاد يختلف فيه اثنان فإن هناك أيضا الأثر الأمريكي والروسي-خصوصا في ميادين الأدب. وقد كتب الكثيرون عن أثر الأدب الأمريكي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بعد الحرب العالمية الثانية»[1]. ولكن البحث في هذه المسألة مازال ضعيفا، ويحتاج إلى متابعة مستفيضة وجادة، خاصة وأن الجزائر كانت قبل الاحتلال دولة قوية، وسيدة البحر الأبيض المتوسط، ومن الطبيعي أن يكون تأثيرها ممتدا إلى الضفاف الأخرى ما بعد البحر.

ووسط كل هذه الرياح، عمل مثقفو الجزائر المخلصين من مختلف التيارات الإصلاحية والوطنية، والسياسية على تكريس الوعي الوطني الذي يحفظ ماء الهوية، ومقومات الانتماء. ومن هنا ظل السؤال المطروح في مخيلة الاحتلال الفرنسي البغيض وأتباعه هو: ماهي أسباب المنعة والمقاومة التي تؤدي دوما إلى فشل المشروع الفرنسي التغريبي؟ و«أما تعليل عدم نجاح الفرنسيين في فرنسة الجزائريين نجاحا باهرا، فلأن الأمة الجزائرية عريقة في عروبتها، أصيلة في تاريخها، عنيدة في إبائها، شديدة التمسك بما تراه حقا. فلم يكن الجزائريون يوما ينظرون إلى الفرنسية إلا على أنها لغة الأجانب. ثم إن أحدا من عقلائهم ومفكريهم، وعوامهم أيضا، لم يكن يعتقد أو يحاول أن يعتقد بأنه فرنسي من الفرنسيين. فقد كانوا يرون ذلك، تلقائيا، خيانة ليس من بعدها خيانة، وأي خيانة أبشع من أن يتنكر المرء لأصله، ويخرج عن دائرة جنسه، ويهجر لغة قومه؟»[2]. وقد شهدت عديد الدراسات في

---

[1]) أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة. ص44.

[2]) عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. ص22.

التاريخ الجزائري بأن الشخصية الجزائرية تتميز بالتعنت، والاستماتة، وعدم الاستسلام. وهذا ما جعلهم يتبنون فعل المقاومة الذي يحفظ لهم أرضهم، ومجتمعهم عبر السنين والحقب. «فقد كان للجزائريين حين نزلت القوات الغازية الفرنسية على الشواطئ الجزائرية سنة 1830كل مقومات الأمة، حتى وإن لم تكن تسمى بهذا الاسم، من رقعة جغرافية محددة ومعروفة، وحكم مركزي ذي سيادة، ولغة وطنية، وثقافة عريقة، وحضارة متجذرة في التاريخ، ودين يجتمع عليه كل أهل البلد، وتاريخ معروف يمتد على مدى عشرين قرنا على الأقل»[1].

وفي مثل هذه الحاضنة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، وتحت الهيمنة الاستعمارية الفرنسية، يتحقق إشكال الازدواج اللغوي في الكتابة الجزائرية، سواء الأدبية، أو في المجالات الأخرى. «ومن الطبيعي أن يكون إنتاجنا في عهد الاستعمار مزدوجا. وقد ظل الجزائريون يكتبون ما يكتبون بالعربية إلى فاتح هذا القرن تقريبا. وعند ظهور النخبة المتفرنسة أخذت تحرر ما تحرر بالفرنسية.»[2]. ولعل أكثر المنابر التي احتضنت الكتاب الجزائريين هي الصحف والمجلات التي كانت تصدر تباعا تحت السيادة الفرنسية، وبعضها يتعرض إلى التهديد والغلق، وبعضها ينشط في كنف السرية. وعلى قلة تلك الجرائد فقد كانت ترفع صوتها أحيانا، وتخفضه تارة أخرى حسب تغيرات السياق الاستعماري، «وقد ظهر ذلك في الصحافة التي أنشأتها مثل (الرشيدي) و(الإسلام)، والعرائض التي قدمتها إلى السلطات الفرنسية مثل عريضة 1912 عن التجنيد الإجباري، والكتيبات التي حررتها مثل كتاب الشريف بن حبيلس (الجزائر الفرنسية كما يراها الأهالي)»[3]. ومرحلة الكتابة النضالية، أدبيا وسياسيا، قبل مرحلة الثلاثينيات من القرن العشرين، كانت تحاول صياغة مفاهيم الهوية الجزائرية، حتى وإن كانت بازدواج لغوي، و«أما الكتابة بالعربية فقد تطورت

[1]) أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي. نشأته وتطوره وقضاياه. ط2. ديوان المطبوعات الجامعية 2017. ص26.
[2]) أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة. ص41.
[3]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

على ما كانت عليه في ميدانين هما ميدان الصحافة مثل (الجزائر)، (كوكب إفريقية)، (الفاروق) الخ.. وميدان التأليف على يد ابن أبي شنب والمجاوي وابن الخوجة»[1].

3-الثقافة الجزائرية ما بعد الاستقلال:

لقد عملت الدولة الجزائرية على بسط السيادة الوطنية مرحلة ما بعد الاستقلال، وتأسيس بنية اجتماعية على قواعد الهوية. وحتى وإن كانت تبعات الاستدمار الفرنسي بادية على وجه المشهد الجزائري، إلا أن الإرادة في استعادة الوعي الوطني والقومي كان يظهر جليا. ولا يمكن أن نمر دون الإشارة إلا أن الازدواج اللغوي غداة الاستقلال مشى على مستوى المثقفين وفق اتجاهين. اتجاه ظل محافظا على تشبعه باللغة الفرنسية، والثقافة الفرنسية الأوربية إلى حد التغني بها. واتجاه آخر حاول إعادة تأسيس ذاته وفق مفهوم الاستقلال، والتخلص من التبعية الاستعمارية. «إن هذه اللغة التي كان الجزائريون يتخذونها أداة للمقاومة، ويعدونها (غنيمة حرب) ما لبثت أن تحولت لدى بعض الكتاب إلى نفي لغتهم الأم كما عبر عن ذلك مالك حداد، وأضحت لدى بعضهم الآخر إيديولوجية ثقافية تواجه الثقافة الوطنية، وتزاحمها في مؤسسات الدولة، وتفرض نفسها في حياة المجتمع اليومية. ومن هنا ينبع ذلك الصراع الحاد بين ثقافتين كان ينبغي أن تكون عامل ثراء للثقافة الوطنية على غرار ما نلفيه لدى الثقافة المغربية والتونسية، وتكاد تنفرد الجزائر بجو ثقافي مشحون بالصراع غير المثمر»[2]

وقد أشرنا سابقا إلى أن المشروع الفرنسي الاستدماري لم تكن وسيلته السلاح الحربي فقط، وإنما هجم على الجزائر مستعينا بنخبة كبيرة من مثقفيه، وعلمائه، ورجال الكنيسة. وراح كثير من الكتاب الفرنسيين يحاول إعادة صياغة بعض المفاهيم الإمبريالية

[1]) أبو القاسم سعد الله: أفكار جامحة. ص41.
[2]) أحمد يوسف: يتم النص. ص47.

بحثا عن الأصل المشترك، وتقزيم النسب العربي. «وممن دشنوا الكتابة الروائية (روبير راندو Robert Randau) في اتجاه القول بالشعب البربري الفرنسي والرسالة الحضارية التي تمركزت في أوربا وينبغي أن تشع على من تخلف من الأمم، للانتهاء إلى أن الجزائر لاتينية في الأصل تمتد من (سانت أوغستين) و (أبوليوس) إلى حاضر فرنسا»[1]. ومن هنا، يكتسب الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية خصوصيته الثقافية، والمرحلية، والحضارية؛ إذ إنه «لا يمكن الحديث عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية من غير الإشارة الى الإرث الذي سيرتكزون عليه. فالاستعمار الذي يقول عنه جمال الدين الافغاني (إن الاستعمار لغة واصطلاحا ومصدرا واشتقاقا لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى الخراب والتخريب والاسترقاق والاستعباد منه الى العمار والعمران والاستعمار)، ولاحقا سماه مولود قاسم الاستدمار، وهذا الاستعمار كما تسلح بالجيوش، تسلح أيضا بمثقفين لعبوا دورا أساسيا في تخريب العقول تجسد في تيارات وإن هي تلونت إلا أنها تلتقي جميعا في خدمة الفكرة الاستعمارية»[2].

ولا شك أن مرحلة ما بعد الكولونيالية لدى الشعوب التي كانت مضطهدة لا تسلم من الأذى النفسي والفكري. وقد حاولت تلك الشعوب عبر مثقفيها أن تعيد تشكيل ملامح الهوية التي تسعى جاهدة إلى مواجهة تحديات العولمة، ومركزية الآخر وهيمنته. ومثل هذا الأمر يؤدي إلى ظهور مشروع فكري مغاير للرؤى الاستدمارية التي تحاول دوما تنقية المستعمِر من استبداده، ووحشيته. وقد سعى أدباء الجزائر من الذين يكتبون بالفرنسية إلى تبرير الاستمساك بتلك اللغة، فقد وصفها كاتب ياسين بأنها غنيمة حرب (Le Français est notre butin de guerre). بينما اعتبر بعض منهم أن التكوين الذي تلقاه هو الذي صنع منه هذا النوع من المثقف. وآخر انطوى على نفسه معتبرا اللغة الفرنسية منفى (La Langue française est mon exil).

---

[1]) مخلوف عامر: مراجعات في الأدب الجزائري. ص61.
[2]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

«وأشقاؤنا في المشرق العربي يستغربون تعصب البعض منا للدفاع عن الفرنسية، حديثا وكتابة وقراءة، ودفاعهم عنها أكثر من دفاعهم على لغتهم القومية، ويندهشون حقا من هذا الحماس الزائد للدفاع عن الفكر الفرانكفوني، ويحتارون مثلنا–نحن الذين نقدس لغتنا الوطنية، ونقدس ثقافتنا القومية–نحتار جميعا من هذا الموقف الذي يصعب أن نجد له نظيرا في الأقطار العربية الأخرى (المشرقية) التي ابتليت بالاستعمار الغربي، ونحتار في تعليل هذه الظاهرة تعليلا علميا»[1].

وتعددت الأسباب، والرؤى التفسيرية لهذه الظاهرة على الرغم من أن كثيرا من الشعوب التي كانت مستعمَرة ما زال كتابها يكتبون بلغة المستعمِر، مثل الشعب الهندي، وبعض الشعوب الأمريكو لا تينية، من دون أن تثير هذه المسألة أي مشاحنة تتعلق بالهوية، لكن الأمر مختلف تماما في الجزائر على صعيد بعض النخب الفرانكفونية؛ «فهل دوافعها مصلحية آنية؟ هل سببها التكوين، هل الأمر يعود إلى الأشخاص وأمزجتهم؟ وهل تختلف اللغات في التأثير والسيطرة على العقول بحيث إن بعضها يشل التفكير شللا تاما؟؟ وهل جنس الاستعمار له دخل في ذلك؟؟»[2]

ومع مرور الوقت بدأ صراع الفرانكفونية في الجزائر يخبو لتغير أنماط التفكير في ظل العولمة، والتنوع الثقافي، وبقيت الفكرة التي ترى أن كل نص يُكتب يملك مقومات استمراره أو زواله، وكثيرا من النصوص التي كتبت باللغة الفرنسية طواها النسيان، وينسحب الأمر على بعض النصوص العربية أيضا. وأما من بقي يطبل للمشروع الفرانكفوني، فلا مجال الآن لمثل هذه الأحلام الضيقة، فالثقافة العالمية أصبحت قدرا محتوما، وأن كل شعب يبقى منعزلا سيجرفه التيار. وأن البقاء للأقوى الذي يعمل على الحفاظ على ثقافته المحلية، ومقومات شخصيته الوطنية، ويندفع نحو المستقبل دون إحساس بعقدة النقص، ومركزية الآخر المتفوق. «وهذه الفئة التي نسوق الحديث عنها ولها هي التي تحاول أن تلبسنا ثوبا لا يصلح لنا ولا يناسبنا،

---

[1]) عبد الله ركيبي: الفرانكفونية مشرقا ومغربا. ص16.
[2]) المرجع نفسه. الصفحة نفسها.

تطلب منا أن نتغرب لا أن نتعرب، أن نتنكر لا أن نتحرر، إن المنطقي عند هذه الفئة المنسلخة عن أصولها وجذورها هو أن نستكين لا أن نثور ونقاوم، كان هذا دأبها ودأب آبائها قبل الثورة وأثناءها وهو دأبها اليوم وسيبقى إلى ما شاء الله»[1]

وما أحوجنا إلى توظيف التنوع الثقافي في الجزائر توظيفا إيجابيا في اتجاهه الصحيح، نستطيع من خلاله تشكيل ثقافة تنسجم مع مقومات الهوية، والذاكرة الوطنية التي تستوعب الأنا، وتنفتح على الآخر بما يخدم مشروعنا الثقافي الأصيل الذي يحترم خصوصيتنا الدينية واللغوية والتاريخية والحضارية. ولعله من الصواب أن نقول: «تتميز الثقافة في عصرنا الراهن بظواهر الصراع بين الثقافات المحلية والثقافات عبر الوطنية (Transnationales)، ولا تقتصر المحلية على التواجد في حيز جغرافي ثابت، فهي تتجاوز مكانها الأصلي، كما هو الشأن في جاليتنا بالمهجر التي تتمسك بوجه عام حتى بعد الجيل الثالث بثقافتها الأصلية، وتنقل نفس العادات نحو بلد الهجرة، ولا علاقة لذلك بمسألة الاندماج (Intégration)، لأن الجاليات اليهودية مندمجة في مختلف نشاطات بلدان الهجرة الكثيرة، وهي متنفذة، ولكنها ثقافيا متمسكة بتقاليدها الراسخة»[2].

[1]) عبد الله ركيبي: الهوية بين الثقافة والديمقراطية. ص111.
[2]) محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية. ص378.